الآداب
المجلد: 25، العدد: 01، ديسمبر 2025
الصفحات: 197 – 212
ISSN 1111 – 4908 EISSN 2588 – 2228

مناخ الصمت وصراخ الهُوية في روايات منيف قراءة ايكولوجية

The Climate of Silence and the Cry of Identity in Munif's Novels: An Ecological Reading

د. مزداوت وسيمة [1]

[1] محمد لمين دباغين، سطيف 2 – الجزائر، w.mezdaout@univ-setif2.dz

تاريخ الإرسال: 2025/07/27 تاريخ القبول: 2025/11/07 تاريخ النشر: 2025/12/11

ملخص:

لم تعدّ البيئة في الإبداع الأدبيّ مجرد خلفية تصوّر الأماكن باعتبارها بنى سردية قارة فحسب؛ بل باتت تمثل اليوم فاعل سردي وثقافي يحوّل دلالات الخطاب السردي، ويتحكم في وعي وثقافة الشخصيات. وفي بعض روايات عبد الرحمن منيف يتشكل مفهوم الهُوية في مناخ جاف قاس ماديا، يؤول بالإنسان إلى ضياع روحي. من خلال وعيه بدور البيئة المناخية في تكوين الشخصية والهُوية. مما يحيلنا إلى التساؤل حول العلاقة بين المناخ والهُوية وثنائية (الانتماء والاغتراب)، وبين المجتمع والبيئة. من خلال قراءة ايكولوجية؛ تقف عند مفهوم المناخ وأهم تمظهرات التصوير الايكولوجي، وكذا دلالات أبرز الرموز المناخية. في "النهايات" و"مدن الملح" خصوصا، لتحديد العلاقة بين الصمت والمناخ الصحراوي عند منيف، انتهاءً بالإشارة إلى أبرز مآخذ أدب المناخ، وآفاقه المستقبلية.

كلمات مفتاحية: *عبد الرحمن منيف، الهوية، أدب المناخ، التصور الايكولوجي، التحوّل الثقافي.*

Abstract:

The environment in literary creativity is no longer just a backdrop that depicts places as static narrative structures; instead, it has become a narrative and cultural agent that transforms the meanings of narrative discourse and influences the consciousness and culture of characters. In some of Abdul Rahman Munif's novels, the concept of identity forms within a harsh, arid climate that leads individuals toward spiritual loss. By recognizing the role of the climatic environment in shaping personality and identity, Munif encourages reflection on the connection between climate and identity, the duality of belonging and alienation, and the interaction between society and environment. This ecological study examines the concept of climate and the primary ways ecological representation is depicted, as well as the symbolic meanings of key climate imagery, particularly in The Endings and Cities of Salt. The research aims to clarify the link between silence and desert climate in

المؤلف المراسل: مزداوت وسيمة.

Munif's works, concluding with a review of major critiques of climate literature and suggestions for future research.
Keywords: *Abdul Rahman Munif; identity; climate literature; ecological representation; cultural transformation.*

مقدمة:

ظلّت الرواية –منذ ظهورها– ديوانا عربيا يصور هواجس الإنسان، ونظرته للطبيعة، ومصيره فيها. وفي عصر التغيرات البيئية، الناجمة عن تطور الصناعات والتكنولوجيات والأنشطة، تصاعدت التحديات المناخية، فبرزت الحاجة إلى اهتمام أكثر بوصف البيئة، والوقوف على متغيراتها؛ من خلال وعي حقيقي لتأثير المناخ على البيئة، وتأثير هذه الأخيرة على الوجود، والنشاط الإنسانيين. منذ عهد طوفان نوح، الذي تسبب في تغيير جذري وإلى غاية يومنا هذا. ومن هنا تتضاءل مصداقية الاعتقاد بأنّ الوعي البيئي، لم يكن محورا أساسيا في صلب الأدب والنقد العربيين، ما دام لم يكف لحظة عن كونه المحور الأساسي لاهتمامات الإنسان عبر العصور. وخير دليل على ذلك، ديوان عرب الأمس (الشعر)/ باعتبار الرواية (ديوان عرب اليوم – على رأي أنصار الرواية). فقد كان حافلا بالوعي البيئي، ووصف أثر المناخ على البيئة، منذ قصائد الوقوف على الطلل الأولى، التي تضمنت سرودا شعرية لتأثير السيول والأمطار والرياح على الأطلال والدمن.

أمّا بالنسبة للرواية العربية –كجنس أدبي حديث، فيعتبر الروائي عبد الرحمن منيف من أبرز الروائيين الذين جسدوا الوعي بالبيئة، وآثار المناخ على الإنسان، وجعلوا المناخ عنصرا دراميا تقوم عليه بنية السرد وايماءاته. ومن أبرز الأعمال التي عكست هذا خماسية مدن الملح، والنهايات، أين تلمس القراءة العميقة لهذه الخطابات تجسد البيئة الصحراوية، والرياح، وعامل الحرّ، والجفاف كشخوص موازية للشخصيات عبر تأثيرها الدرامي، وهي تتحول إلى عناصر فاعلة، بوسعها توجيه مسارات السرد لكثافة حمولتها الدلالية وتوزعها وفقا للأنساق الظاهرة والخفية في الخطابات الروائية.

وهذا ما يجعلنا نتساءل: كيف للمناخ أن يساهم في تشكيل الهُوية؟ وما علاقة تشويه الهُوية بالتحولات المناخية والبيئية؟ وسعيا للحصول على إجابة شافية، تم الارتكاز على منهج ايكولوجي ثقافي، بدى الأنسب لرصد علاقة المناخ والبيئة بتشكلات الهوية الفردية والجماعية.

1. أدب المناخ:

أدب المناخ: *Cli – fi* أو *Climate fiction* هو نوع من الكتابات الأدبية التي تعكس قضايا المناخ، وآثاره الواضحة عل البيئة والإنسان. وقد أصبح الآن يهتم بشكل خاص بأثر أزمة المناخ العالمية، ومخلفاتها إزاء لبيئة والمجتمع. لكنه يهتم أكثر بالجانب الإنساني، وغالبا ما يجنح للخيال العلمي والرؤى المستقبلية.

أما عن النقد البيئي، فهو النقد الذي يهتم بـ "العلاقة بين الأدب والبيئة المادية، فكما يبحث النقد النسوي في العلاقة بين اللغة والأدب من منظور واع للجنس، ومثلما يستحضر النقد الماركسي وعيا وإدراكا لأنماط الإنتاج والطبقة الاقتصادية، عند تعامل مع النصوص الأدبية، يتخذ النقد البيئي منهجا يرتكز إلى الأرض في تعامله مع النصوص الأدبية"[1].

و"يبدو أنّ الإشارة إلى أدب المناخ بدأت في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، على الرغم من أن المصطلح قد تم تطبيقه بأثر رجعي على عدد من الأعمال، ومن بين مؤلفي الخيال المناخي الرائدين في القرن العشرين جي جي بالارد وأوكتافيا إي بتلر، في حين يستشهد غالبا بالخيال الديستوبي لمارجريت أتوود، باعتباره مقدمة مباشرة لظهور هذا النوع؛ منذ عام *2010*، من بين مؤلفي الخيال المناخي البارزين كيم ستانلي روبنسون، ريتشارد باورز، باولو باسيجالوبي، وباربارا كينجسولفر"[2].

ومن أبرز سمات أدب المناخ، ان المناخ فيه هو المحور الرئيس الذي يحرك مسارت السرد وتغيراته. وغالبا ما يستمد معطياته من علوم وتخصصات أخرى، كالأرصاد الجوية والجغرافيا، أو معطيات التطور التكنولوجي المرتبط بالخيال العلمي والديستوبيا. لذلك يكون مؤسسا على حقائق علمية ثابتة غالبا. ومن ميزاته الحميدة أنه كثيرا ما يدق ناقوس الخطر، إزاء الإهمال البشري للبيئة، الذي يقود، على المدى الطويل أو القصير، إلى عواقب وخيمة، لا تحمد عقباها. وهنا يكون بوسع أدب المناخ، أن يوجه للمجتمع تساؤلات أخلاقية؛ حول آثار الحداثة على البيئة، ومسؤولية الانسان عن تحولات الكوكب الأزرق.

2. تمظهرات التصوير الايكولوجي عند منيف:

يقصد بالتصوير الايكولوجي ***Ecological Imagery*** تمثيل البيئة والطبيعة في النص الأدبي، حيث تتراوح صورهما بين كونهما عنصرين للمقاومة والصمود، أو رمزين للتغيّر والتراجع والانهيار.. حسب سياقات النص ومضمراته، وغاياته. ذلك أنّ الأديب الذي يكتب في أدب المناخ هو فنان واع، لا يكتفي بدور المصور الذي ينقل الواقع بإيجابياته وسلبياته فقط؛ بل هو بالإضافة إلى ذلك إنسان آتٍ من المستقبل المهدد

بالدمار، وفقا للتهديدات المناخية القاهرة. وسنحاول فيما يلي استخراج أبرز تمظهرات التصوير الايكولوجي، في بعض روايات عبد الرحمن منيف:

الرواية	التصوير الايكولوجي	الدلالة
الأشجار واغتيال مرزوق[3]	تصوير مدينة طيبة في البداية/ مرحلة الاستقرار: ✓ واحة غناء ✓ أشجار مثمرة ✓ طبيعة خلابة في النهاية/ مرحلة لانهيار: ✓ تدخل الصناعة—العبث بالأرض ✓ قطع الأشجار ✓ تجريف التربة	رمز للتغير والتراجع والانهيار ✓ تلاشي الملاذ الروحي لسكان طيبة (أثر نفسي) ✓ تشوه الصورة المألوفة للمدينة الخلابة (أثر مادي)
مدن الملح[4]	تصوير وادي العيون في البداية/ مرحلة الاستقرار: ✓ ماء رقراق ✓ ضفاف خضراء ✓ مساحات شاسعة في النهاية/ مرحلة الانهيار: ✓ تحول الوادي إلى تجمع نفطي ✓ أضرار التجمع على البيئة والإنسان ✓ تراجع مساحة الأرض ومخزون الماء	رمز للتغيّر والتراجع والانهيار أضرار حيوية (تلف الماء والأرض والهواء) – أثر مادي تلوث البيئة — أثر نفسي.

	✓ التأثير السلبي على المساحات الخضراء	
النهايات[5]	تصوير بيئة صحراوية في البداية/ مرحلة استقرار سلبي ✓ جفاف الأرض ✓ شدة الحر ✓ محيط قاحل في النهاية/ مرحلة الانهيار بعد المقاومة ✓ عاصفة مباغتة	الصياد– رمز المقاومة والصمود/ الرغبة في التغيير الأثر النفسي: الرغبة في الدفاع عن الطبيعة الأثر المادي: صعوبة التغيير – الطبيعة أقوى.

تقول بسمة عروس:"البيئة في هذه الرواية بيئات، بيئات أدبية جمعت الملحمة إلى الثيمات الرعوية والأسئلة الوجودية، وبيئات سردية جمعت بين التبئير المتعدد ومسارات الاسترجاع والتصديرات وتضمين الخرافة، وحقول بيئية مختلفة جمعت بين البيئة النباتية والبيئات الحيوانية والبيئة الاجتماعية" [6]

وبناء عليه؛ فمنيف يستغل السرد كعنصر دينامي لفهم العلاقات بين المقاومة والصمود، والتراجع والانهيار؛ وذلك من خلال هواجس الإنسان، المتعلقة منذ الأزل بالرغبة في ترويض الطبيعة، وتسخير المناخ.

3. دلالات بيئة التصحر:

لعبت الصحراء كرمز، دورا فاعلا في توجيه الحكاية التي تتمحور حولها منذ القدم؛ و"غالبا ما تلعب الصحاري أدوارا مهمة في التجربة والتحوّل، واجه العديد من الأبطال والبطلات تحديات، أو التقوا بكائنات غامضة، أو خضعوا لتغييرات عميقة في هذه المناظر الطبيعية القاحلة. على سبيل المثال، تعرض يسوع للتجربة في الصحراء لمدة 40 يوما، مما يعكس فترة من التجربة والتعزيز الروحي. وبالمثل، تتحدث العديد من حكايات الشرق الأوسط وشمال افريقيا عن أحداث سحرية وكنوز مخفية، ونساك حكماء يقيمون في هذه المناطق القاحلة. مما يؤكد طبيعة الصحراء الغامضة والتحويلية." [7]

ومن هنا كانت الروايات الثلاث السابقة مرآة تعكس دلالات شتّى للتصحر، من خلال كتابات منيف، يمكن ايجاز أبرزها في:

1.5.الرؤيا الاستشرافية:

حيث تجسد تصوراته صفارة إنذار لما هو مقبل، وللعواقب الوخيمة لسوء استغلال البيئة. فهو لا يقدم وصفا ساكنا صامتا للتصحر، كحالة عابرة، بل كتحذير،، وتنبيه لتطاول الفساد ليطال التوازن الروحي، والأخلاقي في المجتمعات العربية.

2.5.الجفاف الروحي:

أين تنعكس البيئة والمناخ على الشخصية، لتتحول هذه الأخيرة إلى شبح، يسري هاربا من القسوة والجفاء، فنلمس شعورا قهريا بالرفض والاغتراب في شخصيات منيف. بل حتّى الأماكن تمارس انسحابا قهريا لتتخلى عن سماتها الأولى المألوفة، وتكتسب سمات موحشة، كما هو الشأن في مدن النفط.

3.5.البعد السياسي:

حيث تنعكس هيمنة السلطة غير المبررة، وغير الخاضعة لتطلعات الشعب أو المجتمع. من خلال قمع إرادة المجموعة وتسليط رأي الفرد (الحاكم).

4.5.تراجع القيم الشعبية وهدم الثقافة المحلية:

أين يطغى الانبهار بثقافة الآخر، على حساب الثقافة المحلية المغمورة، وتصبح القيم الشعبية مجرد ذكريات شاحبة. وتستبدل القيم الأصيلة، بقشور ما يسمى جزافا بالحضارة.

5.5.الفساد البيئي والاجتماعي:

وهذا ما نجم عن النهب الاقتصادي، وهيمنة المادة (النفط)، التي أدت إلى دمار البيئة والإنسان، على حدّ سواء. حين تتحول الواحات الغناء إلى كتل من الاسمنت المسلح. ممّا يعكس عدم استقرار الطبيعة على حال، وبالتالي عدم ثبات الإنسان على هيئة وحال مستقرين. من خلال هذا نستنتج أنّ التصحر في روايات منيف كصورة من صور المناخ وتجلياته، لم يكن مجرد خلفية طبيعية، تصوّر المحيط لتجميل السرد، بقدر ما هو بنية رمزية دالة؛ كشفت عن تغيرات خطيرة في تركيب البيئة، وهو ما انعكس تباعا على تغيرات واضحة في شخصية الإنسان. وهذا ما يمكن قراءته وتأويله كانعكاس لانهيار المجتمعات العربية تحت وطأة المادة.

فقد أحسن منيف توظيف البيئة (الصحراء) كأداة تحليل أيكولوجي، تصوّر تداعيات التصحر الناجم عن التسلط البشري وعلاقات الهيمنة الاعتباطية. بكثير من الوعي بأدب المناخ، وكثير جدّا من الفهم للواقع الاجتماعي، والعمق الإنساني. لنستنتج من خلال هذا كله أنّ للصراع مع المناخ، ليس صراعا ماديا فحسب، بل وجودي وثقافي كذلك.

4. الرموز المناخية وتصدع الهُوية:

وفقا لما سبق، نجد أنّ منيف يوظف المناخ في سرده الروائي، وخاصة البيئة الصحراوية، كرموز تصرخ بالانكسار النفسي، وتندد بالجفاف الثقافي، وتعاني من الاغتراب. فالجفاف والتصحر والحرّ اللاذع والعواصف والغبار.. ليست مجرد لوحات ديكورية، بقدر ما هي شفرات رمزية تومئ إلى تشوه الأصلة وتفكك الهوية. ويمكن عد بعض اهم الرموز التي عبرت عن ذلك في الروايات المذكورة سلفا، كالتالي:

1.6. رمز الماء:

ومثال ذلك (**وادي العيون**) في رواية مدن الملح؛ حيث تتناول الرواية ندرة الماء، رغم الحاجة الماسة إليه كمركب حيوي لا تستقيم الحياة دونه. وذلك شأن القيم التي ضربت عرض الحائط رغم استحالة استقامة الحياة دونها.

2.6.رمز الملح:

الملح سريع الذوبان وهو عند منيف رمز لهشاشة ما تمّ بناؤه وتشييده دون قواعد ولبنات صلبة، وهو حال الهوية العربية المتأرجحة في مهب رياح العولمة والتقليد الغربي. وقد استلهمت من (الملح) عناوين لعدة روايات عربية، أبرزها "**ثمن الملح**" لخالد البسام، و"**رجال من ملح**" لعلي إسماعيل 2020.

3.6. رمز الجفاف أو القحط:

يعكس هذا الرمز انعدام الأمل، وقسوة الواقع وصعوبة الحياة. أين يعاني الإنسان من فقدان سيطرته على تكييف الطبيعة. فيفقد أمله في الاستمرار والبقاء. حيث تصور الروايات المختارة شح الماء، وقسوة المناخ، وغياب المساحات الخضراء. وهو ما انعكس على الانسان سلبا، فبدت شخصيات الرواية غريبة مغتربة، محرومة من الحب، فاقدة للحرية.

4.6. رمز العاصفة:

ويمثل الثورة والقوة، وقد يوحي بالرفض والسخط، كما قد تكون العاصفة استشرافا لثورة اجتماعية أو سياسية. ولذلك فالعاصفة رمز مكثف، يكتسي طابعا انذاريا يترجم تحولات جذرية عنيفة وكارثية.

5.6. رمز الصحراء:

جسدت الصحراء في روايات منيف رمزا زاخرا بالدلالات؛ اكتنز أهمها دلالات التيه والضياع، والشعور بالقلق، والسخط، ومعاناة القسوة، والاغتراب. وغالبا ما لمحت لانهيار أنظمة سياسية واجتماعية، وإعلان

التمرد على مستوى الأفراد رغبة في الرفض والتغيير. ولا يمكن أن تكون العاصفة في كل دلالاتها مرتبطة بالدمار فحسب؛ بل يمكن أن تقرأ بصورة أخرى، كنوع من التطهير، والدعوة إلى إعادة التشكيل والبناء.

كما يمكن اسقاط دلالات الأفعال التي تخلفها العاصفة، على تجليات فعل كشف الزيف والهشاشة، في الأنظمة والرؤى. وعليه، فإن الرموز المناخية لدى منيف، جاءت متداخلة ومدمجة بشدّة مع أزمات هشاشة الشخصية العربية، رغم ما اكتنفها من عمق المعطيات الفنية الجمالية. وتمكنت من أن تصور بدقة التغيرات التي تطال الأماكن، لتطال الإنسان بطريقة مباشرة، وتطال بذلك الوعي بالأصالة والهوية والمجتمعات المتغيرة قسرا.

5. أهمية الوصف الأيكولوجي:

المتأمل للوصف الايكولوجي في "**النهايات**" و"**مدن الملح**"، يتأكد أنّ اللغة الايكولوجية عند منيف تضفي عمقا جماليا، فنيا، وفلسفيا، فريدا على نصوصه. إنه يحيك علاقات متينة بين عناصر الطبيعة وأسئلة الوجود والفناء والاستقرار والشتات. ففي وصفه لعالم الصحاري، مثلا، يرتكز منيف على تقديم مشاهد دقيقة وغنية بالتفاصيل، حتى ليبلغ مبلغ الموثق التاريخي، وهو يرسخ الأماكن في الذاكرة خوفا من الاندثار.

فينقل للقارئ عالم البدو، بتقاليده وأصالته، وعلاقته بالأرض والسماء، بالنجوم والأفلاك والماء، وألفتهم للمكان. وتزعزعهم نفسيا وماديا، جراء ما يمسه من تغيير وتحوّل. وفي هذا السياق، قال الكاتب عبد الله الخوري بخصوص أدب المناخ: "يعتبر هذا النوع من الأدب ظاهرة إيجابية ومهمة، إذ إن تصاعد الاهتمام بموضوعات التغير المناخي والبيئة يمكن أن يلعب دوراً حاسماً في زيادة الوعي بأهمية الحفاظ على كوكب الأرض. الخيال المناخي يقدم للكتّاب والقراء فرصة لاستكشاف سيناريوهات متعددة، تتعلق بالمستقبل وكيف يمكن لتغير المناخ أن يؤثر على الحياة والمجتمعات. يساهم هذا النوع من الأدب في توجيه الانتباه إلى التحديات التي نواجهها وفتح النقاش حول الحلول الممكنة.

ويضيف: وقد تكون رؤية هذه القضية تعكس تطور عصر المجتمع الحالي، حيث يزيد القلق بشأن تغير المناخ من مستوى البحار المتصاعد وتأثيره على البيئة والبشرية، وتحفز هذه القضية الكتّاب على تضمينها في أعمالهم الأدبية، وتصوير تأثيراتها المحتملة على المجتمع والفرد"[8].

وبالنسبة لما قدمه الوصف الايكولوجي عند منيف، فقد كان كفيلا بنقل وجهة نظر الكاتب للحداثة؛ وحاول تبرير وجهة النظر هذه وتفسيرها. حتّى وإن كان هناك من يعارضها تماما، وينتصر للحداثة، ومواكبة

التطور؛ فكان بإمكان القارئ من خلال هذا، أن يستشف رفض الكاتب للتكنولوجيا الغربية؛ التي ساهمت في دمار البيئة، وقصف الطبيعة، من خلال بناء مدن النفط. على الرغم من أنّ النفط عينه مركب طبيعي، وكنز من كنوز الأرض. ولا بدّ من استخراجه واستثماره، لصالح الإنسان والطبيعة.

وعلى الرغم من ذلك، فالكاتب يصرّ على تشبيه بعض المدن الحديثة كـ " **مدن الحفر**" بالنبات الطفيلي الذي يزحف على الأراضي الصحراوية، دون أن يمتك جذورا، أو أن يشكل إضافة ثرية للطبيعة. وبناء على هذه المعطيات فأهمية الوصف الايكولوجي عند منيف، تكمن في قدرته على كشف مآل الطبيعة، والبيئة، والإنسان. وقدرة هذا الأخير على أن يعي مظاهر الاستلاب، والتغيير والتغريب، ويفهم عواقب كل ذلك، ويستعد كل الاستعداد، لتحمل المسؤولية كاملة اتجاهه.

"إنّ الجغرافيا المكانية هنا لها قواعدها وخلفياتها في الذهن البشري (...) وبهذا فإنها كعلم تصبح رمزا أدبيا في عالم الإنسان الأسطوري." [9] مفاد هذا أنّ أدب المناخ يكتسي أهمية بالغة للتنبؤ بالمستقبل، واعداد الخطط البناءة، للتغلب على مشاكله ومفاجئاته، فـ"في عام2018؛ توصلت إحدى الدراسات المنشورة بمجلة العلوم الإنسانية البيئية، أنّ قراء أدب المناخ كانوا أكثر قلقا بشأن أزمة المناخ عن غيرهم من القراء الذين لم يقرأوا هذا النوع من الأدب، الذي فيما يبدو، قد شجع القراء على التفكير في الطرق التي يمكن أن يؤثر بها تغير المناخ على الناس، والحياة بشكل عام. من المعروف أن القصص والخيال يمكن أن تصل إلينا بطرق لا تستطيعها الحقائق والتقارير العلمية، بهدف تبسيط الحقائق وإشراك الناس. فالروايات تنقلنا إلى واقع جديد، حيث نتعاطف مع الشخصيات ونشكل بشكل غير مقصود معتقداتنا، وقناعاتنا، ومواقفنا. كما يقول يوفال نوح هراري في كتابه 21 درسًا للقرن الحادي والعشرين: «يفكر البشر دائما في القصص، وليس في الحقائق أو الأرقام أو المعادلات." [10]

ولما كان الوضع هكذا، لمسنا الطبيعة عند منيف، تتجاوز طبيعتها الصامتة، لتصرخ وتئن، وتشتكي وتتكلم، وتومئ، لأنها ببساطة تحكي عن الإنسان، والإنسان الطبيعي كائن معبّر، فاعل، لا يحسن الصمت حين يستدعي الأمر الكلام، أوحين يتعلق بالشخصية، والمقومات الإنسانية، وخصوصا الهُوية. حين تتحول الأماكن إلى بيئة غريبة عن أهلها، فبعد أن كانت جزء لا يتجزأ من ذاكرتهم ويومياتهم، ولحظات حياتهم. تستحيل بيئة ملوثة قاحلة، مما يصور حالة بائسة للضياع وتشوه الهُوية.

6. العلاقة بين المناخ والصمت عند منيف:

تعبر روايتي منيف (**النهايات**) و(**مدن الملح**)، بشكل واضح عن التغيرات الجذرية التي عصفت بالبيئة جراء المناخ، وتسببت في تغييرها، وتغيير نظرة الإنسان ومشاعره ومواقفه إيزاءها، وقد اختارت هذه الصفحات أن تصف المناخ بالصمت، لعلاقاته المضمرة بالجوانب النفسية والاجتماعية والثقافية وحتى السياسية لواقع الإنسان العربي، وذلك بناء على الرمز التي مثلت علاقة الصمت بالمناخ، والتي تجلت من خلال:

1.8.الصمت – خوف:

عادة ما يكون السبب الأول للصمت غير الاختياري هو الخوف، وحين نجد شخصيات الرواية تخبو تحت وطأة الصمت بلا رغبة فيه، فإننا نستشف الخوف في ردود أفعالها المختزلة في الصمت والكآبة والعزلة.

والشخصيات عند منيف لا تمتلك حقّ التعبير عن رغباتها بحرّية، أين يصبح الصمت قارب نجاة، ويستحيل الكلام ثغرة غرق، خضوعا للسلطة المطلقة. ولا يتعلق الخوف هنا بالكلام فحسب، بل يتجاوزه إلى الخوف من مخلفات التغير السريع على البنى الاجتماعية (من البداوة إلى الحداثة)، ليصبح الصمت هنا خوفا من نوع ثان، هو الخوف من مواجهة المستقبل الغامض والمجهول. وفي النهاية يبدو البطل غير فاعل، لأنه يضطر إلى الصمت أمام مجتمع لا يصغي، وطبيعة قاسية لا ترحم، وسلطة للمصالح لا تعبأ، فما فائدة أن يتكلم إذن؟ وبهذا يستحيل الصمت هنا خوفا من نوع ثالث، وهو الخوف من اللاّ جدوى.

2.8.الصمت – تخاذل وخنوع:

هذا الحكم قاس نوعا ما، لأنه يحيل إلى الانكسار الإرادي، عندما يلتزم الإنسان الحياد والصمت عن مسائل تخصّ مصيره وتحدد مستقبله، فإنه يتخاذل ويخنع، وهذا ما يسلط عليه الحكم بعدم الفعالية، وشطب الهوية والكينونة. وفي (**النهايات**) و(**مدن الملح**)، تقف شخصيات منيف عاجزة عن مواجهة قرارات السلطة الاقتصادية خصوصا بالرفض. وهنا يصنف الصمت في خانة ردود الأفعال السلبية، ولا يتعلق الصمت هنا بالعجز وحده، وإنما يتعلق بالتحلي عن المسؤولية، وهذا ما يراه منيف التعبير الأنسب لانهيار القيم الجماعية. حين تكتفي الشخصيات بالمراقبة الصامتة.

3.8.الصمت – رضى قهري بالتغيير:

تصور (**مدن الملح**) بصفة خاصة، تحولات جذرية مفاجئة، تقع كالصاعقة على شخصيات الرواية، أو سكان المدينة، دون أن يكون للناس يدّ فيها، ولا حتّى عن طريق أحذ مشورتهم، أو على أبسط تقدير اعلامهم، ووضعهم في الصورة، وهذا ما يحيلنا إلى استنتاج دلالة الإقصاء والتغييب. حيث أنّ الشخصيات

التّي من المفروض أن تكون فواعل، تكتفي فقط بالمشاهدة والصمت. وهنا يتحوّل الصمت إلى إدانة غير مباشرة للإنسان، بوصفه في كلّ الأحوال مسؤولا عن المساهمة في تلك التغيرات.

4.8.الصمت – اغتراب:

ما عملت (**النهايات**) على نقله، تعدت مصادر الصمت فيه ومنابعه حدود الخارج (البيئة لصحراوية، السلطة الاقتصادية) لتصور صمتا ينبع من الداخل المنهار. مما يعكس عزلة الإنسان الروحية وغربته الوجودية. ولهذا صورت الرواية بطلها، كإنسان يواجه صمت الطبيعة، وصمت الناس، باحثا عن صدى صوت في عالم أصم وأبكم.

هنا يصبح الصمت صدى لوضع وجودي غائم ومضطرب، يتخبط فيه الإنسان وهو بعيد عن نفسه ومجتمعه، كأنه ليس هو، ينفصل فيه عن ذاته، ويراجع رغباته وتحدياته، يرغب بعمق في الصمت كملاذ روحي، لأنه لم يعد مفهوما ولا مسموعا، تماما كما عاش (أبو زيد)؛ يعيش في صحراء صامتة، بين بشر لا يتفاعلون معه، تفقد الكلمات معانيها، فيفقد البشر وجودهم، ويشعر الإنسان داخليا بأنه ميت.

وهذا ما فتح بابا لظهور دراسات حديثة عن **علم النفس البيئي**، لما للبيئة من مخلفات سلوكية، وهو علم "يهتم بالتفاعلات والعلاقات بين البشر والبيئات المحيطة بهم (...) ويركز بصفة خاصة على سلوك واحساس ومشاعر البشر."[11] ولهذا "أصبحت قضية البيئة في القرن العشرين قضية إنسانية محلية وكونية ملحة لإعادة النظر في تعامل الإنسان مع الطبيعة؛ لأن الإنسان قد عاش في كنف الطبيعة قرونا عديدة، وسنوات كثيرة، ولم يلوثها كما لوثها الإنسان المعاصر منذ الثورة الصناعية في القرنين التاسع عشر والقرن العشرين." [12]

وفي هذا الصدد يقول "ديفيد كارترDavid Karter ، في كتابه "النظرية الأدبية": "يضيف النقد البيئي فئة جديدة –وهي المكان– إلى فئات: العرق، والطبقة، والجنس..إلخ"[13].

وهكذا فالصمت عند شخصيات (**النهايات**) و(**مدن الملح**)، لم يكن ولا مرّة من ذهب، فلا هو حياد ولا هو حكمة. بقدر ما كان خضوع للسلطة، وتخاذل عن ممارسة الحقّ في التعبير. وهو ما يوضح هشاشة الفرد المنعزل أمام السلطة، واضطراب الهوية أمام التغيرات المفاجئة الجارفة. أين يكون الصمت مظهرا من مظاهر الانهيار والتراجع الأخلاقي بالدرجة الأولى.

7. مآخذ أدب المناخ:

إنّ الاهتمام بقضايا البيئة في تزايد مستمر يوما بعد يوم، جرّاء التغيرات المناخية المتسارعة، ومخلفاتها السلبية على البيئة والكائنات الحيّة. ومن هنا يسعى أدب المناخ إلى المساهمة في تصوير العلاقة بين الإنسان والطبيعة، في ظلّ الاستغلال المفرط لموارد الطبيعة (الأرض، الأشجار، الماء، الثروة الحيوانية...)، لإبراز التحديات الوجودية التيّ يسلطها التغير المناخي على البيئة والإنسان، مزاوجة بين أسلوب الخطاب الفني من جهة والخطاب التوعوي من جهة أخرى.

غير أنّ هذا الاتجاه في الأدب لم يسلم من الانتقادات والمآخذ، سواء فيما يتعلق بالشكل أو المضمون؛ لذلك يتطلب النظر إليه شيئا من التأمل لدوره في السياقات الثقافية من جهة، وتمثلاته في سياقات الكتابة الفنية من جهة أخرى. ما دام يراهن على الجمع التوفيقي بين المغزى والمستوى الفني، عبر الانفتاح والتفاعل مع التجارب الثقافية والبيئية المتعددة.

1.9. المآخذ الشكلية:

تقع الكثير من نماذج أدب المناخ في شرك النمطية والتكرار؛ فغالبا ما تصور جلها دمار الأرض، التصحر، أو الفيضانات.. التي تكون نتيجتها الدمار والخراب. ونادرة جدّا هي الأعمال التيّ تقترح حلولا واقعية، أو ترسم مواصفات البطل الأخلاقي، الذي يسعى لحماية البيئة باستثمار الإمكانات والوسائل المتاحة.

2.9. المآخذ الجمالية:

يرى بعض النقاد والدارسين أنّ أدب المناخ يحمل رسالة تتعلق بمشاكل البيئة والمحيط، وهو بذلك أقرب إلى الخطاب التوعوي المباشر، أكثر منه إلى الخطاب الفني الروائي. وهذا ما يجعل بعض الأعمال عرضة لفقدان العمق الأدبي، والبعد الفني.

3.9. المآخذ الفكرية:

الخضوع في كثير من الأحيان لخدمة أغراض سياسية، أو اقتصادية، أو أطر أيديولوجية، مما يجعله أقل تمثيلا للتجارب المحلية الخاصة. كما أنه، أحيانا، يكتسي طابع التعميم، متجاهلا التفاوت التاريخي والاقتصادي، بين مناطق العالم المختلفة.

4.9. تشويه الواقع:

مع أنّ هذا المأخذ لا يمكن اطلاقه كحكم جزافي على أيّ كتابة تصبّ في هذا المجال، ولكن للأسف فهناك بعضّ النماذج التي قد تشوه الواقع وتهوّل مظاهر الخراب البيئي فيه. نظرا لكثافة الخيال التصويري،

غير الموجه والبعيد عن الواقع تماما، مما يقدم صورا أكثر سوداوية وتشاؤما. وهذا ما يعود بنتائج عكسية وخيمة، فبدل نشر التوعية والتنبيه لما يهدد البيئة، والتطلع لإيجاد الحلول. يتسبب النص في توليد الإحباط واللامبالاة.

إنّ "النقد البيئي يمثل مرحلة انتقالية في النقد العالمي، التي قد تتسم بحياديتها غالبا، وهو ما يجعل منه أنموذجا مناسبا للدرس النقدي العربي، الذي يتطلع إلى مراجعة أعماله الكلاسيكية والحديثة وفق مناهج حديثة ودقيقة، تتمتع بخصوصية التناول إلى جانب كونه يمثل ورقة رابحة تتفاعل مع التيارات النقدية الأخرى التي تفيد منه، ويفيد منها في الوقت نفسه"[14].

وهكذا يعمل أدب المناخ على رفع مستوى الوعي البيئي، وإثارة التعاطف إزاء الكائنات المهددة بالخطر، بتحويل المفاهيم التّي يصيغها السرد الروائي إلى تجارب حيّة وملموسة. مما يبني الحسّ الأخلاقي تجاه البيئة، والدعوة إلى تحمّل مسؤولية جماعية تجاه الكوكب ككل. ولن يتسنى ذلك إلاّ بفهم العلاقة بين الحفاظ على الطبيعة والبيئة، والحفاظ على الشخصية والهوية.

خاتمة:

في روايات عبد الرحمن منيف يصبح المناخ فاعلا، لا مجرد خلفية صامتة، إذ بوسعه تشكيل ملامح الهوية أو طمسها؛ وذلك لأنّه لا يصوّر سمات ثابتة للإنسان، تمكننا من رسم هوية ثابتة، بقدر ما يعمل على جعله متأثرا؛ يستجيب لتأثيرات البيئة المتغيرة، سواء من خلال تناوب أدوار الطبيعة بين القسوة والالهام، أو من زاوية استيلاب الأمكنة، وتحوّلها بين البداوة والتحضر، أو بين الريفية والصناعية. وهذا ما يبني من السرد بُرْجًا ثقافيا ايكولوجيا شامخا، يستدعي إعادة النظر في العلاقة بين الإنسان والمناخ، والسلطة والبيئة.

كان منيف ساردا بارعا استلهم من المناخ رموزا وظفت –بدعم من البلاغة والأسلوبية– لرصد التصدعات العميقة، في تشكيل مفاهيم الوعي بالمتغيرات والثوابت. وبذلك فهو لم يلجأ إلى أدب المناخ ليصور واقعا بيئيا فقط، بل ليجسد صراع الإنسان مع عواصف نفسه، ومع السلطة ومع الأصالة والتقاليد، وما جُبِل عليه من جهة، ومع الحداثة والعولمة المفروضة من جهة أخرى.

إنّ الرواية مركب فريد، بوسعه الانفتاح والتفاعل مع الحقول الفنيّة والمعرفية الأخرى، وهذا لما تتميز به من إمكانات جبارة، لا يمكن الاستهانة بها، أهمها التأثير النفسي والفكري، وقوّة الكلمات، وهذا ما يفتح لها باب الإنجاز، ويمكنها من احداث تحولات في وجهات النظر، وإعادة تركيب المفاهيم المتعلقة بالتحوّل في

السلوك اتجاه البيئة، بتجاوز لذّة النص الآنية، إلى مستويات أعلى من الفهم والتذوق، والمسؤولية الثقافية والحضارية.

وأخيرا فإنّ أدب المناخ في الوطن العربي، على الرغم من حداثته، يعِد بالكثير مستقبلا، ويفتح أبواب الإبداع والنقد، لا للكتابة المرتبطة بالسياسة والاقتصاد فحسب، بل حتّى بمصير الكائن الحيّ وكل ما ينبض بالحياة، كما أنه بات يتجه اتجاها إيجابيا؛ من خلال الكتابات الموجهة للأطفال، لزرع الوعي المبكر بأهمية الحفاظ على البيئة. وهذا ما يجعله وسيلة هامة لمواجهة تحديات العصر البيئية.

الهوامش والإحالات:

[1]. جريج جرارد، النقد البيئوي، تر: عزيز صبحي جابر، أبو ظبي للثقافة والتراث، دار كلمة، ط1، 2009، ص15.

[2]. ينظر: *https://ar.wikipedia.org. 2025/07/12*، 13:44سا.

[3]. ينظر: عبد الرحمن منيف، الأشجار واغتيال مرزوق، دار الآداب، بيروت – لبنان، ط1، 1973.

[4]. ينظر: عبد الرحمن منيف، مدن الملح – التيه، ج1، دار الآداب، بيروت – لبنان، ط1، 1984.

[5]. ينظر: عبد الرحمن من منيف، النهايات، دار الآداب، بيروت – لبنان، (د.ط)، 1977.

[6]. بسمة عروس، الكينونة الطبيعية وتبيئة فلسفة الموت: مقاربة إيكولوجية لرواية *الموت يمر من هنا* لعبده خال، ضمن كتاب: أبو المعاطي الرمادي، ومعجب العدواني وآخرون، النقد البيئي، مفاهيم وتطبيقات، دار الانتشار العربي، الشارقة، الامارات العربية المتحدة، بالتعاون مع وحدة السرديات، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، ط1، 2022، ص145.

[7]. ينظر: *https://symbolopedia.com 2025/07/19*، سا: 11:27 /

[8]. وفاء السعودي، "الخيال المناخي ".. نوع أدبي حديث يتصدى لقضايا البيئة والاستدامة https://www.albayan.a 2025/07/19، سا: 12:32.

[9]. مازن الواعر، الجغرافيا والأدب، تقاطع المعارف البشرية، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، 5، السنة 2، جوان 2007، ص 197.

[10]. هبة عبد الستار، أدب المناخ، لماذا تخيل نهاية العالم أسهل من إنقاذه؟ 2025/07/119، سا: 13:00 https://gate.ahram.org

[11]. فرانسيس ت ماك أندرو، علم النفس البيئي، تر: عبد اللطيف محمد خليفة وجمعة سيد يوسف، مطبوعات جامعة الكويت، ط1، 1998، ص 30.

[12]. جميل حمداوي وحسن أعراب، النقد البيئي أو الإيكولوجي في الأدب والفن، دار الريف للطبع والنشر الالكتروني، الناظور – تطوان، المملكة المغربية، ط1، 2020، ص 16.

[13]. ديفيد كارتر، النظرية الأدبية، تر: باسل المسالمة، دار التكوين، دمشق سوريا، ط1، 2010، ص 154.

[14]. أبو المعاطي الرمادي، ومعجب العدواني وآخرون، النقد البيئي، مفاهيم وتطبيقات، ص23.

قائمة المصادر والمراجع:

1. **المصادر:**
   - عبد الرحمن منيف، النهايات، دار الآداب، بيروت – لبنان، (د.ط)، 1977.
   - عبد الرحمن منيف، الأشجار واغتيال مرزوق، دار الآداب، بيروت – لبنان، ط1، 1973.
   - عبد الرحمن منيف، مدن الملح – التيه، ج1، دار الآداب، بيروت – لبنان، ط1، 1984.
2. **الكتب العربية:**
   - أبو المعاطي الرمادي، ومعجب العدواني وآخرون، النقد البيئي، مفاهيم وتطبيقات، دار الانتشار العربي، الشارقة، الامارات العربية المتحدة، بالتعاون مع وحدة السرديات، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، ط1، 2022.
   - جميل حمداوي وحسن أعراب، النقد البيئي أو الإيكولوجي في الأدب والفن، دار الريف للطبع والنشر الالكتروني، الناظور – تطوان، المملكة المغربية، ط1، 2020.
3. **الكتب المترجمة:**
   - جريج جرارد، النقد البيئوي، تر: عزيز صبحي جابر، أبو ظبي للثقافة والتراث، دار كلمة، ط1، 2009.
   - فرانسيس ت ماك أندرو، علم النفس البيئي، تر: عبد اللطيف محمد خليفة وجمعة سيد يوسف، مطبوعات جامعة الكويت، ط1، 1998.
   - ديفيد كارتر، النظرية الأدبية، تر: باسل المسالمة، دار التكوين، دمشق سوريا، ط1، 2010.
4. **المجلات:**
   - مازن الواعر، الجغرافيا والأدب، تقاطع المعارف البشرية، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، 5، السنة 2، جوان 2007.
5. **المواقع الالكترونية:**

-https://ar.wikipedia.org. 2025/07/12، 13:44سا.
-https://symbolopedia.com 2025/07/19، سا: 11:27 /
-باقر صاحب، قديمه وحديثه.. كيف تعامل الأدب مع التغيرات المناخية https://kitabat.com
-هبة عبد الستار، أدب المناخ، لماذا تخيل نهاية العالم أسهل من إنقاذه؟ https://gate.ahram.org
-وفاء السعودي، "الخيال المناخي".. نوع أدبي حديث يتصدى لقضايا البيئة والاستدامة https://www.albayan.ae